المحاضرة الأولى

مدخل إلى موسيقى الشعر

العلاقة الفنية بين الموسيقى والشعر : .

الموسيقى فن من الفنون الجميلة أداته الألحان، والعلاقة بينها وبين الشعر علاقة وطيدة. وقد تجلت هذه العلاقة الوطيدة بين الشعر والموسيقى على المستويين الواقعي والنقدي. وسنحاول تجلية ذلك فيما يأتي:

أولا: النشأة الموسيقية للشعر العربي:

إنّ ارتباط الشعر بالموسيقى، وبالغناء تحديدا، قديم في التاريخ. فعند اليونانيين القدامى كان هوميروس يغنّي شعره على أداة موسيقية خاصّة، وفي العصور الوسطى كانت هناك جماعات من الشعراء الغربيين تُعرف باسم **تروبادور** Troubadours) تُؤلّف الشعر وتغنّيه.

أمّا في أدبنا العربي فإنّ عهد اقتران الشعر بالغناء، العربي، حسب الدكتور البهبيتي، هو عهد قديم "لا يمكن أن يقع في حدود المائتي سنة السابقة للإسلام، وهي الفترة التي يقع فيها شعر شعراء الجاهلية المعروفين لنا جميعا.". وقد ذكر المرزباني في موشحه أنّ العرب كانت "تغنّي النَّصْبَ، وتمد أصواتها بالنشيد، وتزن الشعر بالغناء؛ فقال حسان بن ثابت:

تغنّ بالشعر إمّا كنت قائله *** إن الغناء لهذا الشعر مضمار".

وقد ذهب النقد العربي القديم أن غناء العرب قديما على عدّة أوجه: الحُداءُ. النصب، السناد، الهزج، التغبير.

ومما يستدلّ به أنّ العرب كانت تغنّي أشعارها، أنّ عنترة بن شداد استهل معلقته- كما في بعض الروايات- (هل غادر الشعراء من مترنّم)، فالشعراء ما يزالون يترنّمون بأشعارهم، وكأنّهم لم يتركوا موضعا للترنّم والغناء. وفي قول أبو النجم في وصف قينة ما يؤكّد أن امرئ القيس وعمرو بن كلثوم كانا يغنيان شعرهما:

تغنّى فإنّ اليوم يوم من الصّبا ببعض الّذي غنّى امرؤ القيس أو عمرو

وقال عمر بن الخطاب للنابغة الجعدي:)أسمعني بعض ما عفا الله لك عنه من غنائك، يريد من شعرك. وفي أخبار جرير أنّ بعض بني كليب قالوا له هذا غسّان السليطي يتغنّى بنا؛ أي يهجونا، فقال جرير: غضبتم علينا أم تغنّيتم بنا أن اخضرّ من بطن التّلاع غميرها

ثانيا: الموسيقى ومفهوم الشعر:

1-في النقد العربي القديم:

واستنادا إلى هذه العلاقة الحميمية الّتي ربطت بين ولادة الشعر والموسيقى، شكّل النقاد العرب مفهومهم للشعر، فلم ينأ أحد بنفسه عن هذا الرأي، فهذا ابن طباطبا في عياره يرى أنّ الموسيقى هي أظهر خصيصة في الشعر فيقول: "الشعر - أسعدك الله - كلام منظوم، بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم". وقد أكّد على هذه الخصيصة قدامة بن جعفر، حين عرّف الشعر بقوله: " قول موزون مقفّى يدل على معنى". وهو عين ما ذهب إليه الناقد

الفيلسوف حازم القرطاجني الّذي قال: " الشعر كلام موزون مقفى (...) بما يتضمن من حسن تخييل له، ومحاكاة مستقلة بنفسها أو مقصورة بحسن هيئة تأليف الكلام". وقد أعلى ابن رشيق من قيمة الموسيقى(الوزن) في الشعر، فقال: "الوزن أعظم أركان حدّ الشّعر، وأولاها به خصوصية، وهو مشتمل على القافية، وجالب لها".

ولم يخرج الفلاسفة العرب هم أيضا عن ربط الشعر بالموسيقى، حيث كانوا يتحدّثون عن الشعر ضمن حديثهم عن الموسيقى، فالفارابي في كتابه (الموسيقى الكبير) يقرر أن "الصناعة الشعرية هي رئيسة الهيئة الموسيقية". مؤكّدا "أن الموسيقى والشعر يرجعان إلى جنس واحد هو التأليف والوزن والمناسبة بين الحركة والسكون. فكلاهما صناعة تنطق بالأجناس الموزونة. والفرق بينهما واضح في أن الشعر يختص بترتيب الكلام في معانيها على نظم موزون، مع مراعاة قواعد النحو واللغة. وأما الموسيقى فهي تختص بمزاحفة أجزاء الكلام الموزون، وإرساله أصواتا على نسب مؤتلفة بالكمية والكيفية في طرائق تتحكم في أسلوبها بالتلحين". وكذلك كان رأي ابن سينا الّذي عدّ الإيقاع شرطا في الشعر، فقال: «الشعر كلامٌ مخيَّل، مؤلَّف من أقوال ذوات إيقاعات متَّفقةٍ متساويةٍ متكرِّرةٍ على وزنها، متشابهة حروف الخواتيم".

2-النقد العربي الحديث

ولم يكن للنقد العربي الحديث أن يتنصّل من هذه العلاقة الّتي ربطت بين الشعر والموسيقى، ويتضح هذا عند طه حسين، وهو أحد هؤلاء المجددين، حيث يحدداً ماهية هذا الفن الأدبي بقوله: "المثل الأعلى للشعر، هو هذا الكلام الموسيقى، الذي يحقق الجمال الخالد". وقد أوثق العقاد الصلة بين الشعر والموسيقى، فقال: " نريد باللغة الشاعرة أنها لغة بنيت على نسق الشعر في الوصول للفنية الموسيقية". وما كان للشاعر الأديب مصطفى صادق الرافعي أن ينكر هذا الوفاق السرمدي بين الشعر والموسيقى، حيث يقول: " إنّ الشعر العربي صناعة موسيقية رقيقة".

ثالثا: الشعر العربي المعاصر والموسيقى:

وهكذا كانت صلة الشعر بالموسيقى صلة مصيرية وغير قابلة للفصل مطلقاً، ثمّ تطورت هذه الصلة حتى أصبح الشكل الشعري المنظوم محكوماً بهندسة موسيقية منتظمة لا تقبل الخلل. وحين حاولت القصيدة العربية الحديثة تحطيم هذه الهندسة فإنها لم تكن تنوي إنهاء الصلة بين الشعر والموسيقى، بقدر ما كانت محاولة لاستثمار "إيقاع الجملة وعلائق الأصوات والمعاني والصور، وطاقة الكلام الإيحائية والذيول التي تجرها الإيحاءات وراءها من الأصداء المتلونة والمتعددة".

جامع القول:

ومهما قيل هنا أو هناك، تبقى الموسيقى هي أبرز العناصر في الشعر وأقواها في النفس فهي العمود الفقري في الشعر ، ولذلك لا نستطيع أن نقول : إنّ للشعر موسيقى خاصة تميزه عن سائر ألوان الكلام ، وإنّما الذي يمكن أن نقوله إنّ الشعر لون من ألوان الموسيقى.